

نشأة اللغة العربية ومصادرها

إبراهيم مركات

اللغة العربية من اللغات السامية التي نشأت فيما نسميه الآن منطقة الشرق الاوسط وقد ظلت الآراء مضطربة في الاصل المشترك لهذه اللغات حتى الآن .
على أن المراكز الاولى التي ترعرعت فيها اللغة العربية بعد تبلورها هي على الخصوص اليمن والحجاز . أما في اليمن ، فكانت العربية أكثر اتصالا بالاكديية والحبشية من أي لغة أخرى (1) على أن الهجرات الجنوبية الى الشمال والغرب جعلت عربية اليمن تؤثر الى حد بعيد في هذه المناطق وأما في الحجاز فقد كان هناك تقارب بين العربية والنبطية والعبرانية وهكذا فان هجرات القحطانيين واحتكاكهم بالعدنانيين ساعدت على تركيز لغة مشتركة للتفاهم وقرض الشعر ، هذه اللغة التي أمكنها أن تغطي على الحميرية الصرف .

منها على الخصوص ، مملكة الحيرة التي ازدهرت في القرن 5 ق. م. ومملكة غسان التي ازدهرت في القرن 6 ق. م.

فلم يكن العرب والحالة هذه ، يعيشون كلهم منكمشين على أنفسهم في شبه الجزيرة ، بل كانت لهم علاقة وطيدة بمدينة الفرس والرومان . وهذا ينطبق بالخصوص على سكان الحجاز ، وعرب الشام والعراق .

ولقد كان لعرب الحجاز تجارة واسعة مع الفرس والرومان ، أو على الاصح مع العراق والشام واحتكر التجارة منهم قريش خاصة ، لانهم كانوا يقطنون مكة التي تعتبر منذ زمن سحيق العاصمة الروحية للعرب . والتجار يحتاجون الى تعلم لغة البلاد أو الامة التي لهم بها علاقة تجارية ، ومن ثم كان لا بد أن تدخل الفاظ كثيرة الى العربية من الفارسية والرومانية . وهذه الالفاظ لا بد أن تكون ذات صلة بالحضارة ما دام كل من الرومان والفرس في عداد الامم المتحضرة يومئذ ، بل أرقاها علما ومدنية .

وما من شك في أن هجرات اليمانيين الى الشام ، وعدم وجود وحدة حكومية عربية ، ورغبة العرب بوجه عام في الحفاظ على المقومات القبلية لم يكن من شأنه الا أن يوسع دائرة اللغة العربية بما شملته من تعدد المصطلحات للمعنى الواحد . إذ كان لكثير من القبائل لهجات خاصة دون أن يكون التفاهم مع ذلك صعبا بينها . وإذا كنا نجهل متى نشأت العربية ، فمن المعلوم لدينا أنه قد مر قرن على الاقل قبل ظهور النبي ، وقبل أن تصل العربية الى درجة الاتقان (2) .

ولم يقتصر العرب على شبه الجزيرة وحدها كمواطن لسكانهم ومعيشتهم ، بل انصرفت عناصر منهم الى البلدان المجاورة لشبه الجزيرة قبل الاسلام من طويل . ولما كانت هذه البلاد المجاورة نفسها موطننا لامم سابقة بينها وبين العرب صلة شديدة القوة كالانبياط والاشوريين الكلدان ، فقد سهل على المهاجرين من شبه الجزيرة الاستقرار بهذه البلاد ، وكونوا في ظل الحكم الفارسي والروماني بعض الممالك التي اشتهر

(1) حنا 1 - 21

(2) لوبون 472

في المدلولات فتحدث لها أسماء مخالفة (3) . فالشيف
مثلا اسم اداة ، ولكن لفظ الحسام له دلالة غير مجرد
اداة ، فهو يحتمل اي يقطع وهذا نموذج لاختلاف اللهجات .

٢٠٠ : X : ٢٠٠

ولو ان الفرس أو الرومان احتلوا شبه الجزيرة ، وظال
احتلالهم لها ، لربما كان للغة العربية في الجاهلية مصير
آخر فالمغلوب كما يقرر ابن خلدون يقلد دائما لغة
الغالب ، ولكن العربية اكتسفت منذ العهد العباسي
بإقتباس عدد من الالفاظ الفارسية واليونانية التي شملت
العلوم وجوانب أخرى من الحضارة لم يكن للعرب بها
عهد في الجاهلية ، ولم يضر هذا الاقتباس للغة العربية
بحال ، لانه اقتباس علمي وحضاري وليس اقتباسا
سياسيا اجباريا .

وكانت هناك بعض الميزات التي اختلفت بها لهجات
العرب غير قريش . وكان هؤلاء يحتكون بهم اثناء مواسم
الحج ، فما استحسنته من لهجاتهم تكلموا به وما
استقبحوه تركوه . وكان ضمن ما أخذ على هذه اللهجات
من عيوب (4) :

١ - الكشكشة وهي زيادة شين بعد كاف خطاب
المؤنث (عليك ، عليكش).

٢ - الفحفة في لغة هذيل ، وهي جعل الحاء عينا .

٣ - الشنشنة في لغة يمنية ، وهي جعل الكاف شيئا
في جميع الحالات .

٤ - العنمنة في بعض لهجات قيس وتميم ، وهي
جعل الهمزة في أول الكلمة عينا مثل اكرم (عكرم) .
ومقابل ذلك نجد الفاظا كثيرة دخلت العربية منذ
العصر الجاهلي عن لغات مختلفة ترتبط اقتصاديا
وسياسيا بحياة العرب أنفسهم . ومن هذه الالفاظ (5) :
(١) في السنسكريتية : كافور - قرنفل - بهاء .

ولذلك استقبلت العربية الفاظا جديدة ومتعددة ، من
بينها أسماء بعض الثياب والأواني مما أوردته عدة
مصادر ، وعلى رأسها القرآن .

ولغة العرب ظلت ترتبط في الجاهلية الى حد بعيد
بالمحسوسات التي يقع عليها بصر العربي السني ان
أنشأ شعرا أو أدبا ، فهو لا يتجاوز ذلك المحيط الضيق
الذي عاش فيه ، ولا يخفق بعيدا في الاجواء الانسانية
الا بقدر ما يرد منه ذلك عفوا ، كالذي نلاحظه في معقده
عمرو بن كلثوم .

ولكن الذي يثير انتباه الباحث ، هو ان كل ما يرتبط
بظواهر الطبيعة في حدود شبه الجزيرة ، يمثل ثروة
لغوية لا تقدر بثمن ، فكل أنواع الصحاري والادوية
والحيوانات ، وكل أجزاء الدواب والنباتات وغيرها من
الكائنات التي عرفها الجاهلي في محيطه ، استطاع
بمتهني اليسر ان يخلق لها اسما أو تعبيراً متناسبا ،
وانك لو اجد لبعض هذه الكائنات والمخلوقات وحتى
المصنوعات أسماء عديدة تختلف في الغالب باختلاف
لهجات القبائل ، كاسماء الممارك والاسد والسيف .

وانا كانت قريش زعيمة كل هذه القبائل من غير
منازع ، طالما كانت تتولى أمور الكعبة وتسيطر على
تجارة الحجاز ، فان لهجاتها استطاعت في النهاية ان
تصهر كل هذه اللهجات لتخلق منها لهجة مشتركة ،
هي التي نسميها اليوم اللغة العربية . فقد كانت يومئذ
لهجة ، لانها لم تكن ذات علم مكتوب . ومع ذلك لم
تكن لغة قريش بقادرة على ان تقضي كليا على تعدد
المصطلحات لنفس المعنى أو المدلول ، ولئن كان هذا
عيبا في الوقت الحاضر ، فانه كان شيئا عظيما يومئذ
لانه مكن الشعراء ان يفسحوا لانفسهم المجال في اختيار
الالفاظ على تعددها ، كما انتهينا بواسطته الى ان نميز
بين بعض اللهجات القبيلية . ومن الملاحظ ان كثيرا من
القبائل كانت تنظر الى الجانب المهمل أو الغير المنظور

(3) لويون ص 9

(4) المزهر 1 ص 221

(5) تاريخ آداب اللغة العربية 1 ص 44 - 46 والمزهر 1 ص 275

(2) في الفارسية : ديباج - فالوذج - زنجبيل -
صندل - سكرجة - طست - ابريق - طبق - خوان -
سندس - سميذ - كوز - نرجس - ويعض الالفاظ
الفارسية نجده واردا في القرآن الكريم (ابريق زرابي
سندس استيرق).

(3) في العبرانية : حج - كاهن - عاشوراء - بيت .
(4) في اليونانية : اسطراب - بطريق بطاقة -
قسطل - ترياق .

(5) في الحبشية : منبر - حوارى - برهان - كفلين -
مشكاة - هرج - والثلاثة الاولى من استنتاج السيد
جرجى زيدان (6) .

فالعربية اذا ، اعتنت بالفاظ كثيرة منذ العصر
الجاهلي ولكنها ازادت غنى في العصر العباسي
كما هو معلوم .

ولم تكن ألفاظ الكلام العاني وحدها مصدرا لدراسة
اللغة وتدوينها بل كانت هناك مصادر أساسية أخرى
لها أهم ، وهي القرآن والشعر والامثال والقصص .
فاما القرآن ففضلا عن كونه احدث تغييرا جذريا في
التفكير العربي في جميع مناحى الحياة ، فقد كان
مصدرا عظيما للغة التي أغناها بمصطلحات كثيرة أو
باسلوب جديد على الاصح وكثير من هذه المصطلحات
أو الاسلوب يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين كالزكاة والميراث
والصلاة والايمان ومشتقاته .

وكان النبي يقدم هذا الاسلوب المنزل عليه في صورة
وحي ، كاخبار أو جواب عن أسئلة يثيرها العرب :
(يسألونك عن الاملة - يسألونك عن الشهر الحرام قتال
فيه - ويسألونك ماذا ينفقون - يتسالمون عن النبي
العظيم... الخ).

وإذ اتسم الدين بمنتهى البساطة في عهد النبي ،
فلم تثر أسئلة كثيرة لتأويل عند من نصوص القرآن .
فكان على الصحاب أن يأخذوا على انفسهم ثقل هذه
المسؤولية ، فلم يقدم على ذلك الا قليل منهم كعكرمة
وابن عباس اللذين تصديا للجواب على كثير من الاسئلة
التي أثارها المستفسرون .

وأثار الخلاف في قراءة القرآن مشكلة ظهور عدة
روايات تنوقلت عن جماعة معينة من القراء واحتفت
الآيات بوجه عام بصورتها الحقيقية ، وانما كان الخلاف
يتعلق بالحركات لا بجوهر اللفظ نفسه .

ومهما يكن من شيء فان القرآن كان مرجعا أساسيا
لرواة اللغة الذين اعتمده كمنقطة استقرار واستنتاج ،
وقد حفظ عددا من الاستعمالات التي لم تعد اليوم جارية
في الاسلوب العربي (ان هذان لساحران - قال رب
ارجعون - والارض فرشناها - فقد صغت قلوبكما -
(والمقصود قلبان فقط) قال رب ارجعون الخ ..

وكل هذه الاستعمالات وغيرها كان يستشهد به
للتدليل على صحة ما يقابله من غير القرآن .

ولم يحظ الحديث بمثل هذه الحظوة من حيث اعتباره
كمراجع في اللغة لان احاديث كثيرة ضعفت أو نسبت
كذبا إلى النبي . وكان لنشأة المذاهب الدينية والسياسية
المختلفة ، أثرها في خلق احاديث لم تثبت صحة نسبتها
للنبي ، ومن ثم ، اجتنب نقلة اللغة ورواتها الاخذ
بالحديث فيما يهم الاستشهاد بصحيح اللغة وتبيين
السالام منها والفساد .

ومع ذلك فتوجد تراكيب مشهورة وردت قصدا أو
ضمنا في احاديث النبي حتى قيل انها لم تسمع عن
غيره من قبل ، ومنها (7) مات حتف انفه - الحرب

(6) مصدر سابق ص 45

(7) مزهر 1 ص 302 ويرى بشر فارس في «مباحث عربية» ان الحديث : بعثت لاتهم مكارم الاخلاق على الرغم
من شهرته ، فهو غير مقطوع بصحته ، واستند في ذلك الى «الموطأ» الذي أورده بنص بعثت لاتهم حسن الاخلاق.
وانا فأرواة لم يعتمدوا على الحديث لمثل هذا السبب

منها الشيء الكثير ، وهي ذات أهمية باللغة من حيث ارتباطها اجتماعيا وأدبيا بحياة العرب . كما ان كثيرا منها يصلح تطبيقه على غير العرب من الامم والافراد ، كقولهم : (الحرب خدعة ، ومعظم النار من مستصفر الشرر ، ولا يطاع لقصير أمر) وقد أخذت كثير من دول أوروبا عددا من الامثال عن العرب (9) .

على ان وراء كل مثل قصة حفظت كتب الامثال كثيرا منها ، وخصوصا ، مجمع الامثال للميداني (518 هـ) . والقصص تمثل بدورها نماذج صادقة من تفكير العرب وآدابهم ، وأهميتها اللغوية تتمثل فيما شملته من غريب ألتلف وجمال الاسلوب وأحسن مرجع لها هو كتاب الاغانى والبيان والتبيين للجاحظ والامالي للقالى . وموجز نقول ان القرآن والشعر والامثال والقصص قد أدت دورا بارزا في حفظ اللغة وتقويمها . الا ان وقتا طويلا قد مر على المفكرين والباحثين قبل أن يهتدوا الى الخطر الذي أصبح يهدد اللغة بعد فشو اللحن فيها بسبب الاختلاط بالأعاجم ، ويعد العرب عن شبه الجزيرة التي نشأت فيها لغتهم .

ولست موردا هنا نماذج للاخطاء اللغوية والنحوية التي تفشت على السنة العرب في زمن مبكر من صدر الاسلام ، فهذه النماذج ترددها مصادر كثيرة كالعقد الفريد والمزهر ، وسأورد بعضها فيما بعد .

الا ان الذى ينبغى تسجيله هنا هو أن جميع الدراسات اللغوية انما كان سبب نشأتها ونموها القرآن قبل غيره . ذلك ان الفاظا كثيرة يرددها القرآن كانت مثار أسئلة المسلمين منذ عهد الرسول . وكان بين هذه الالفاظ ما هو غير عربي ، ثم كان المعنى اللغوي يتعين فهمه قبل الاقدام على التأويل التشريعي فنشأ عن ذلك العناية بتفسير القرآن واختلقت الروايات في قراءة القرآن فنشأ عن ذلك عنم القراءات التي كانت ذات ارتباط وثيق بالنحو . وأخيرا فان وضع قواعد النحو كان ضروريا

خدعة - لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ولكنها أصبحت جارية الاستعمال فيما بعد .

وأما الشعر فمصدر بالغ الأهمية للغة ، حتى قيل انه لولا الشعر لضاع نصف اللغة ، وهذا حكم صحيح الى حد كبير .

وانما ظل الشعر مصدر اللغة لسهولة حفظه وروايته، ولانه لا يحتمل المكثوب والمدسوس مثلما يحتمله النثر ، واذ كان الشعر لم يسلم من التحريف والانتحال ، فان بعض الالبياء عمدوا الى جمع كثير منه كتابة في وقت متأخر نسبيا كابى تمام (الحماسة) والاصبهانى (الاعغانى) . والذين تصدوا من جماع مواد اللغة للتأليف في هذا الباب عمدوا الى الاستشهاد بالشعر كما فعل النحاة أيضا .

وهكذا استشهدوا بالشعر التالي على ان (عزب) تطلق على الذكر والانثى :
يا من يدل عزيا على عزب
واستشهدوا فى اخضاع الاسماء العجمية لابنية كلام العرب بقول الاعشى :

وكسرى شهنشاه النبي سار ملكه
له ما أشتهى راح عتيق وزنبق
وشهنشاه ، اختصار له (شاهان شاه) (8) .
كما استشهدوا في مخاطبة الواحد بلفظة التثنية بقول سويد بن كراع :
فان تزجراني يا بن عفان انزجر

وان تدعاني احسم عرضا معنما
وقس على هذه الامثلة ، وقد كان ابن عباس يقول :
انا قرأت شيئا من كتاب الله لم تعرفوه فاطلبوه في اشعار العرب ، لان الشعر ديوان العرب .
وأما الامثال فتعتبر كذلك من مصادر اللغة ، وللعرب

لحفظ آيات القرآن على صورتها الاصلية ويقطع النظر عن تعدد القراءات .

على الخصوص وفي ايام الراشدين بوجه عام . وما سجل من الهفوات على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئاً يذكر بالقياس الى ما بلغته العربية من فوضى فيما بعد . بل نلاحظ ان السود الذين دخلوا في الاسلام منذ الجاهلية وعهد النبي انسجموا بسهولة مع النطق العربي السليم كعنترة نى الام الافريقية ، وبلال الحبشى ، وصهيب النى اختطفه الروم صغيراً . بيد ان عدد هؤلاء كان قليلاً لم يؤثر في سلامة اللسان العربي .

ولحسن الحظ فقد كان العرب يفتنون الى ضرورة تدوين أكثر ما يمكن من الاشياء التي يخشون على ضياعها بسرعة ، كما فعلوا في تدوين المصحف مثلاً . وقد بداوا في ذلك منذ ايام ابي بكر وهذا يدل على ان العرب كان فيهم عدد ممن يحسن الكتابة . بل يمكن ان يفهم من تعميم أسرى مكة لصبيان المدينة اثر وقعة بدر ، ان الكتابة كانت تنتشر بمكة التي عرفت قبل المدينة (10) ومن ثم فتدوين العلوم المتصلة بالقرآن قد سبق تدوين غيرها من العلوم .

ولا ننس بعد هذا ان عدداً كبيراً من الفاظ الجاهلية قد أهمل استعماله ابتداء من صدر الاسلام ، ثم فيما بعد . وهكذا فقد كانت اسماى الايام في الجاهلية هي : السبت : يشيار ، الاحد اول الاثنين : أهون واهود ، الثلاثاء : جيار ، الاربعاء : دبار ، الخميس : مؤنس ، الجمعة : عروبة ، كما أهمل قولهم حبيت فهو محبوب ، وترك : مضنى وبقي امضنى (13) الخ ..

وبالرغم من ان الكتابة كادت تكون مجهولة في باقي اجزاء شبه الجزيرة ، فان الالفاظ اللغوية التي حفظتها القصائد تشكل ثروة هائلة ، ولقد كانت لغة الشعر كما يقول بروكلمان (11) أشبه ما يكون بنهر جداوله هي اللهجات المحلية للقبائل ، والتي اشتقت من العين نفسه . واذا كان للقرآن فضل في انتشار العربية بشكل لم تكده لغة أخرى في العالم (12) فان الموارد الأخرى التي استقى منها الرواة ودارسو اللغة الاولون قد أدت بدورها خدمة لا تنكر للعربية .

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال في تحقيق اللغة وتسميز صحيحها من فاسدها وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيون قد ساهموا بدورهم في هذا الميدان ، الا أن مؤلفاتهم على العموم لم يتح لها تأثير كبير من حيث الذبوع والانتشار .

ولقد ظلت اللغة العربية على متانتها في عهد النبي

ابراهيم حركات

(P. 10) Essai sur l'origine de l'écriture (10)
P. de Linguistique, page 40 (11)
P. de Linguistique, page 41 (12)
(13) المزهر 1 - 218